كتاب الشباب

حمام السلام



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

حَمَام السَّلام

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

حمام السلام – الرياض

٤٧ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٤-٣-٠٠٣-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية – المغرب أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٦٤ ٢٢/٢٨٠٨

رقم الإيداع: ٢٢/٢٨٠٨ ردمك: ٤-٣-٠٠٣-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



أُصيبَ الفتى ميمونُ الرَّخا بصدمةٍ عنيفةٍ حين ذهبَ لزيارةِ صديقِه ورفيقِه في الدِّراسةِ نورِ الدينِ أَمَقْرَانَ في بيتِه، ففتحَ البابَ والدُه الحاجُّ الفقيهُ عمرُ أمقرانُ، إمامُ مسجدِ المدينةِ وخطيبُ جُمُعَتِها، وكان رجلاً طويلاً، ذا لحيةٍ كثَّةٍ سوداءَ محفوفَةِ الشَّارِبِ، يرتدي قميصًا أبيضَ طويلاً.

وحين رأى ميمونَ الرَّخا عَبَسَ واكْفَهَرَّ وجهُه وسأله بلهجةٍ خَشِنةٍ:

– ماذا تريد؟

– أُريدُ نورَ الدينِ، يا سيدي. اتفقنا أن نُراجِعَ دروسَنا معًا.

وظَهرَ نورُ الدينِ خلفَ أبيهِ فقال الرجلُ:

– عُدْ إلى دارِ أبيك! لا أريدُ أن أراكَ مع ابني! لا في المدرسةِ ولا في الشَّارعِ!

وصفَقَ البابَ في وجهِه، فوقفَ ميمونٌ مصدومًا كسيرَ الخاطرِ. وسمِعَ صديقَه نورَ الدينِ يُعاتبُ والدَه على سوءِ معاملتِه لصديقِه، فصاح الرَّجُلُ فيه:

- لا أريدُ أن أراك في صُحبَةِ ذلك الولدِ! فأَبوهُ رجلٌ غيرُ صالحٍ.

وجاءه صوتُ نورِ الدينِ محتجًّا على والدِه:

- ولكن ما ذَنْبُ ميمونٍ؟

- إنه في سنٍّ يستطيعُ فيها تقديمَ النُّصْحِ لأبيه ليبتعِدَ عن بيعِ السُّمومِ! وإذا لمْ يُنْصِتْ إليه وَجَبَ عليه الابتِعادُ عنه...

- وإلى أينَ سيذهبُ؟

- هذا ليس شغلَنا! فقدْ أمرَنا رسول الله ﷺ باجتنابِ مَواطِنِ الشُّبُهاتِ. وصُحْبَتُك لِولَدِ الرَّخا تجعلُك في موطنِ شُبْهةٍ. فاتَّقِ اللهَ فينا وفي نفسِك، يا ولدي!

ورجع ميمونُ الرَّخا متأثرًا إلى بيتِه. وفاجأَهُ والدُه، وهو يبكي في غرفتِه وحدَه، فألحَّ عليه في السؤالِ لمعرفةِ ماذا يُبكيه، فحكَى له ما حَدَث، وغَضِبَ الأبُ، وأخذ يسُبُّ الفقيهَ، ويُعيِّرُه بفقرِهِ، وقال لميمونٍ:

- أنا كذلك أمنعُك من مرافقةِ ولدِ أمَقْرَانَ! «والذي غطَّاك بخيطٍ غطِّه بحيْطٍ»

- لن يبقى لي صديقٌ إذن! فكلُّ تلاميذِ القِسْمِ

يتجنَّبونني، إلا الطماعين الذين لا رغبةَ لي في مُصاحَبتِهم . . .

فقال الأبُ مدافعًا عن نفسه :

- إنهم يحسُدوننا على نِعْمَتِنا! وهذا الذي يسمونه سمًا زرعه آباؤنا وأجدادنا من قبل، ثم إننا لا نبيعُه للمُسلمين، بل نُصدِّرُه إلى دارِ الكُفْرِ للانتقامِ منهم لما فَعَلوه فينا أيامَ الاستعمارِ، ولما يفعلونَه بنا الآن في فلسطينَ والبوسنةِ، بل وفي عُقْرِ دارِنا! فهم يُرسلون إلينا مخدِّراتٍ أغلَى من الكيفِ وأَشدَّ تخريبًا لعُقولِ الشبابِ، وهي الكوكايين والهيروينُ والْكْرَاكِ، وغيرُها . . . وقِنطار كامل من الكيفِ الجيِّدِ لا يصلُ مفعولُه مفعولَ نصفِ كيلو من هذه السُّمومِ الحقيقية!

وسكتَ ميمونُ الرَّخا غير مقتنعٍ. لمْ يُجادل والدَه لأنه كان سريعَ الغَضبِ والانفعالِ. وأدرك والدُه أنَّه غَيْرُ مقتنعٍ، وأنه سكَتَ على مَضَضٍ احترامًا له. فأضاف :

- إلى جانبِ أن أرضَنا هذه غيرُ صالحةٍ لأيِّ نباتٍ غيرِ الكَيفِ. وقد جرَّبنا وجرَّبت معنا وكالةُ محاربة المخدرات أن نزرع غلالاً أخرى فلمْ ننجح، وكأننا نزرعُ في البحر!

ونظر إلى وجه الفتى لعلَّه يرى بارقة اقتناعٍ، ولكن هذا كان مُصِراًّ على رأيه، فجدَّد الأبُ المحاولةَ:

- في نظَري، هؤلاء الأجانبُ منافقون! فأثناء الحَمْلةِ التي شنَّتها الحكومةُ على الفَسادِ انتقلتْ أموالُ الكِيفِ كلُّها إلى أوروبا، ففتحتْ لها أبوابَ بُنوكِها، وربحتْ بها متناسيةً المبادئَ والقيمَ الأخلاقيَّةَ التي تنصحُنا بالتَّشبُّثِ بها!

وضربَ المائدةَ بقبضتهِ مؤكِّداً وصاح:

- القيمةُ الوحيدةُ المُعتَرفُ بها في العالَمِ اليومَ هي المالُ ولا شيءَ غيرُ المالِ! الشَّخصُ الآن يساوي ما في جَيْبِه، وليس ما في مُخِّه أو رُوحِه! وإذا كان أصحابُك في المدرسةِ لا يعرفون هذا فَهُمْ لم يتعلَّموا شيئًا! هُمْ جَهَلَةٌ أميُّون ولا حاجةَ بِكَ إليهِم. ومن الآن فصاعداً، لا أريدُك أنْ تذهب إلى تلك المدرسةِ. فقدْ تعلَّمتَ ما يكفي، وأريدُك أن تساعدَني في العملِ وسأُعطيك أجرةً جيِّدةً!

ذهب ميمونٌ الرَّخا، ولمْ يستطعْ الرَّدَّ على والدِه، فقدْ كانت قراراتُه دائمًا حاسمةً ولا رَجْعةَ فيها، حتى ولو كانت خاطِئةً!

تركَ ميمونٌ البيت مضطربًا حزيناً، وقصَدَ ملعَب كرة القدمِ الفارغَ، لينفَرِدَ بنفْسِه، ويفكِّرَ في مصيرِه. وكان يطمعُ في أن يُقنِعَ والده بِتَرْكِ زراعة الكيفِ، فوجدَ نفسه متورِّطًا فيها!

وفكَّر في الثورةِ عليه والهروبِ إلى مدينةٍ أخرى، ولكنَّه تخلَّى عن الفكرة لِعَدَمِ جَدْواها. ثم فكَّر في أن يُوَسِّط لديه أمَّه أو خالَه أو عمَّه، ولكنَّه تذكَّر مواقفَ والدِه من هؤلاءِ في ظروفٍ أقلَّ خطورةً من هذه، فتراجَع. لمْ يستطعْ أن يتصوَّر نفسَه منقطِعًا عن الدِّراسةِ إلى زراعةِ الكيفِ وتسميمِ الناسِ، وهو الذي كان يطمحُ إلى أن يصبحَ طبيبًا يُعالجُ المرضى والمدمنين!

* * *

وفي اليوم الموالي، بَحثَ عنه صديقُه نورُ الدينِ في المدرسة ليعتذِرَ له عن خُشونةِ أبيه معه فلمْ يَجِدْه.

وفي المساء، ذهب للسؤالِ عنه في بيتِه، وفوجئَ ميمونٌ بقدُومِه وخافَ أن يراه والدُه فَينهَرَه، وصَرَفَهُ هامساً: «اسبقني

إلى الملعبِ، سألحقُ بك حالاً.»

وانصرف نورُالدينِ، وقد شَغَلَهُ اضطرابُ صديقِه. وفي رُكْنٍ من الملعبِ جلسَ الصديقان يتحدَّثان. وبادر نورُ الدين بالاعتذارِ. وفاجأه ميمونٌ بقرار والدِه أن يَحرِمَه منَ الدراسةِ، وأعربَ له عن حيرتِه الشَّديدةِ. فهو لا يريدُ سَخَطَ والدِه عليه من جهةٍ، ومن جهة أخرى لا يَقْبَلُ الانقطاعَ عن الدراسةِ والتنازلَ عن طموحِه في أن يُصبِحَ عالمًا كبيراً وطبيبًا ماهراً ينفع الناسَ، ويكفِّرُ عن أخطاءِ والدِه!

وأحسَّ نورُ الدينِ أَمقرانَ بالحزن لحالِ صديقِه ميمونٍ الرَّخا، وبمسؤولية والدِه الفقيه عما حَلَّ به. وسأله بجدٍّ:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل لأُساعدَك؟

ـ لا أدري، تحدثني نفسي بالفِرارِ من هذا الجحيمِ، والذهابِ إلى مدينة أخرى، أو الهِجرةِ إلى بلدٍ آخرَ، أعمل أو أطلبُ منحةً أتابعُ بها دراستي هناك. فلا أحدَ هناك يعرفُ أن أَبي مُزارعُ كيفٍ. وسأقول لمن يسألني إني يتيم!

فقال نورُ الدين، غَيرَ مُوافقٍ:

ـ لا أعتقدُ أنها فكرةٌ جيدة! فقدْ ذَهبَ عبدُاللطيف أزرقانَ بنفسِ الفِكرة وعادَ خائبًا. الازدحامُ هناك شديدٌ على كلِّ شيء. العاطلون من أهلُ البوادي من الريفِ والجبلِ كلُّهم انصبُّوا هناك. وكثيرٌ منهم احترفوا البطالةَ، وانتهوا في أسواقِ الرَّذيلةِ، وسَقَطوا في حَبائِل كِبارِ المهرِّبين وتُجَّار الكَيفِ والمخدِّرات وأباطرةِ المافيا الدوليةِ، وأصبحوا جنودًا صغارًا في عصاباتها، يتناحرون ويتصارعون على نُقَطِ التوزيع، وتُصبِحُ جُثَثُهُم مُلْقاةً في الشوارع. فلا تظنّ أن الأرضّ هناك مفروشة بالذّهبِ والحريرا وخيرٌ لك أن تبقى هنا، وتَجَدَ حلاً لمشكلتك مع والدِك من أن تغامرَ وتعودَ خائبًا مهزومًا، يتشفّى فيك الناسُ!

واقتنع ميمونٌ برأي صديقِه نورِ الدين، وفكَّر قليلاً وقال:

ـ أنا الآخر لا أريد أن أُضَيِّع هذه السنةَ الدراسيةَ. فلمْ تبقَ إلا بضعةُ أسابيع لامتحانات الشهادة الثانوية. وسيكون عليك أن تأتيَني بالدروسِ المتبقيّةِ من المقرَّرِ لأُتابِعَكم...

أَظهر نورُ الدين كاملَ الاستعدادِ، ولكنَّ ميمونًا زَمَّ شفتيه

في حسرةٍ وأضاف :

ـ شيء واحد يُقلقني!

ـ ما هو؟

ـ أن يتَّصِلَ المدير بوالدي ليسأله عن سبب غيابي، فَيُخْبِرَه الوالدُ بانقطاعي عن الدِّراسة، ويُشْطَبُ اسمي من المدرسةِ، ويفوتُني الامتحانُ!

فوضع نورُ الدين يدَه على كتفِه مُطَمْئِنًا وقال :

ـ لا تقلق! دَعْ تدبيرَ أمرِ ذلك لي . . .

وافترقَ الصديقان على موعدٍ في نفسِ المكانِ والساعةِ.

* * *

وفي اليومِ الموالي، انفردَ نورُ الدينِ بأستاذِ الرياضة، سي محانْد شَوْرَاقَ، أثناء الاستراحةِ بالمدرسةِ، وأَطْلَعَه على مِحْنَةِ ميمونٍ. وتأثَّر الأستاذُ شوراق، فقد كان يُحِبُّ ميمونًا ويتنبأُ له بمستقبلٍ جَيِّدٍ. وكان ميمونٌ عضواً بارزًا في «نادي حَمَام السَّلام» للتَّحليق المجَنَّح الذي كان يترأَسه الأستاذُ شوراق، ووَعَدَ نورَ الدين أن يُكَلِّمَ السيد المديرَ في شأنِه .

وتفهَّم المدير مِحْنَةَ ميمونٍ وأشفقَ عليه. فلم يكُن ميمونٌ أوَّل أبناءِ تُجَّار الكِيفِ الذين يتركونَ المدرسةَ. إلا أنَّ ميمونًا لم يتركْها مختارًا كما فَعَلَ غيرُه منَ الذين أفسدهم مالُ الكَيفِ الهابطِ من السماء! فهؤلاءِ لم يستطيعوا مقاومة إغراءِ حياةِ الحريةِ والمغامراتِ والسيَّارات الجديدةِ السريعة ومراكبِ التهريب والسَّهّرات مع الأجانبِ في يُخوتِهم في عَرْضِ البحر.

ووعدَ ألاّ يشْطُبَه من المدرسةِ، وأن يسمحَ له بأداءِ الامتحانِ، ولو في غرفةٍ مستقلة حتى لا يعلَمَ أبوه!

* * *

وفي ذلك المساءِ حضَرَ الأستاذُ شوراق بصحبة نور الدينِ إلى الملعبِ ليُبشِّرَ ميمونًا بنفسه. ورحَّب به ميمونٌ بحرارة. وابتهَجَ لسَمَاع البُشرى التي حَمَلها إليهِ من المديرِ. وأحسَّ بعمقٍ إنسانيةِ المديرِ الذي لم يكنْ يراه إلا عابِسًا آمرًا ناهيًا، حريصًا على الأمْنِ والانضباطِ...

وقال له الأستاذُ شوراق:

- عليكَ أن تبذُلَ قُصارَى جهدِكَ للنَّجاحِ في الامتحانِ!

فالشهادةُ الثانويةُ معناها الحريَّةُ بالنسبةِ إليك. وسوف تُتيحُ لكَ الحصولَ على منحةٍ والالتحاقَ بالجامعةِ والاستقلالَ الاقتصاديَّ التَّامَّ عن والدِك.

وظَهَرَ الحزنُ على وجهِ ميمونٍ، فتساءلَ شوراق عن سَببِه فقال له:

ـ منذُ صِبانا ونحن نتعلَّمُ طاعةَ الوالديْن، واليوم أجدُني سائرًا في طريقِ عصيانِهما!

فقال نور الدين:

ـ لا تحزَن يا ميمونُ! فالرَّسول ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوقٍ في مَعْصيةِ الخالقِ.»

ـ وفُوجىءَ ميمونٌ بالحديثِ الشريف الذي كان سَمِعَه من قبلُ ونَسِيَه. نَزَلَ عليه بَرْدًا وسلامًا، فارتاحَ ضميرُه وأخذ يفكِّر إيجابيًا وإلى الأمامِ.

وذكَّره الأستاذُ شوراق برحلةِ نادي حَمَام السَّلام إلى الجبلِ لممارسةِ هِوايتِهم في التَّحْليق المجَنَّحِ. كانت تلك آخرَ رِحلةٍ لأعضاءِ النَّادي قبلَ الامتحاناتِ، ووَعَدَ ميمونٌ بالحضورِ إذا لمْ يمنعْهُ والدُه.

* * *

وفي الطريق إلى البيت، سَمِعَ ميمونٌ أذانَ المغرب، فدخل المسجدَ، ووقف في الصفِّ الأوَّل بين رجلين كبيرين مُلْتحيَين، كِلاهُما يرتدي قميصًا طويلاً وطاقيَّةً مَشرِقيَّةً بيضاءَ، يُقيمان تقريبًا بالمسجدِ بصِفَةٍ دائمة، ولا يُزاولان أيَّ عَمَلٍ. وأخذ كلاهما يُنافِسُ الآخرَ في المناداةِ بتسويةِ الصُّفوفِ، وتمشيطِ اللِّحيةِ وَمسحِ الوجهِ بالكفَّين. وأَلْصقا قدمْيهما الكبيرتَين المشققتَين بقدَمَيْه، فجَمَعَ قدَمَيه للتَّوسيعِ عليهما، فالتفتَ إليه الذي على يمينه، وقال شِبْهَ زاجرٍ:

– أتريدُ أنْ تَتْرُكَ للشيطانِ فَتحةً يدخلُ منها!؟

فانسحَبَ الفتى إلى الصفِّ الثاني وتركَ الرجلين، وكبَّر ووقف ينصتُ إلى الإمام وهو يقرأ: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾.

وشَغَلَهُ مشهدُ هجومِ الطيور الذي تَصِفُه السُّورةُ على

جيشِ أبْرَهَةَ أثناءَ الرُّكوعِ. ولكنَّه عاد إلى الخشوعِ في السُّجودِ.

وبعد الصلاةِ قصد دُكَانَ والدِه. وكان هذا يبيعُ فيه آلاتِ الزِّراعة والبذورَ وتجهيزاتِ البناءِ، ويتَّخذُه في نفس الوقت واجهةً لإخفاءِ مَصْدَرِ ثَرْوَتِه الحقيقيِّ الذي هو الكيف! وكان ميمونٌ يحتفِظُ فيه بمحفَظةِ كُتبِه المدرسيَّةِ لاختلاسِ النَّظَرِ إلى دروسِه أثناءَ غيابِ والدِه.

وبينما هو يبحثُ مَرَّ ببابِ الدُّكان أستاذُ التَّربية الإسلاميَّة محمد الزفزافي. وكان رجلاً مثقَّفًا فاضلاً، عميقَ التَّديُّن، يمارسُ دينَه في حياتِه اليوميَّةِ دون تعصُّبٍ ولا تكبُّرٍ، ودون أن تفارقَ الابتسامةُ وجهَه. وكان أقربَ الأساتذةِ إلى نفوسِ جميعِ التلاميذِ.

وخرج ميمونٌ يُرحِّب به مسروراً، فوضعَ هذا يدَه على رأسِ الفتى وقبَّل أصابعَها كعادتِه، داعيًا له بالحفظِ والنجاحِ. ثم قال:

– لم تحضُرْ درسَ اليوم. أرجو أن يكونَ المانعُ خيرًا!

فحكَى له ميمونٌ ما حَدَثَ له مع الفقيهِ ومع والدِه، فصَدَمَه ما سمِع، وأخذ يستغفرُ اللهَ للرَّجلين. وأطرَق قليلاً ثم قال:

– لو كان أبوك رجلاً سهلاً لتوسَّطْتُ لك عنده. ولكني أخافُ أن تجَنيَ وسَاطتي عليك، ويقسُوَ عليك أكثرَا! ولكنها ليست نهايةَ العالَم! فلا تيأسْ، ولا تستَسلمْ، ولا تكره والدَك، وادعُ له بالهدايةِ وحُسنِ الخاتمة.

وابتسم ميمونٌ ليُظْهِرَ لأستاذِه أنه راضٍ بقضاءِ الله، وأنه لن يتركَ الدراسةَ. واغتنمَ فرصة وُجودِه فطلب منه شَرْحَ سورة الفيلِ والكلماتِ التي لم يفهمها، فقال له:

– طيرٌ أبابيلُ تعني مُتتابِعةً، والسِّجِّيل حجارة كالطين اليابس، والعَصْفُ هو التِّبْنُ.

وشَرحَ له السورةَ بتفصيلٍ مُشوِّقٍ، ثم ابتسم وقال مداعبًا:

– مَنْ يدري؟ فقد يَحدُثُ لزُرَّاع الكيفِ ما حدَث لأبرهةَ حين عَجزتْ قريشٌ عن صدِّه! وأمَلُنا في الله أن يُعينَ هؤلاءِ الناسَ على تَرْكِ هذه التجارةِ الخاسرةِ البائرةِ في الدنيا والآخرة!

ووعده أن يفكِّرِ له في شَفيعٍ لا يستطيعُ أبوه رده، وانصرف مُسْرِعًا، فقد كان على موعدٍ مع جمعيةِ جَمْعِ التَّبرَعاتِ لفِلسطينَ التي يترأَّسُها.

* * *

وبات ميمونٌ ليلتَه يَحلُمُ بالطَّيرِ الأبابيلِ والحجارةِ من سِجِّيلٍ والعَصْفِ المأكولِ. ورأى نفسَه أحدَ تلك الطيورِ العجيبةِ وهو يُلقي الحجارةَ على جنودِ أبرهةَ، وهم يُحاولون إسقاطَهم بالنِّبالِ والرِّماح، فتتلقَّفُها الطيورُ بمناقيرِها وَبراثِنِها، وتُعيدُها إلى صدورِهم بنفْسِ القوة!

ونظَر إلى وجوهِ الطيورِ فإذا هي وجوهٌ آدميَّة! بل وجوهُ رفاقِه في المدرسة! واستيقظ على أَذانِ الفجر، فتوضَّأ وخرج إلى المسجد.

وحين عادَ كانت أمُّه قد أعدَّتْ له فَطوراً جيداً، ولفَّتْ له غَداءً دسمًا في كِيسٍ من البلاستيك. ومرَّ عليه سي محاند شوراق، أستاذُ الرياضة، قبل شروقِ الشمس بِسيارَةٍ كَبيرةٍ من نوع 4x4.

ومع خيوطِ الشمسِ الأولى، كانت السيارةُ القويةُ تتسلَّقُ بجماعةِ نادي حمَامِ السلامِ الجبلَ الوعرَ صوبَ القمةِ. والتحقتْ بهم سَيَّارةٌ أخرى تحملُ بقيَّةَ أعضاءِ النادي العشرين، وقد تراكمتْ على ظهرِ السيارتين الأجنحةُ مطويّةً بعنايةٍ.

وحكى ميمونٌ لرفاقه حُلْمَه العجيبَ، وكيف تحوَّل جميعُ أعضاءِ النادي إلى طيورٍ ترجُم أبرهةَ بالحجارةِ. فسأل أحدُهم:

– يا ترى من هو هذا الأبرهةُ الذي بِتْنا نرجُمُه في حُلْمِك؟

فأجاب آخرُ ضاحكًا:

– مدير المدرسة!

فقال ثالث:

– بل أستاذُ الرياضيات!

وأسكتَهم سي مْحانْد مُعاتبًا على قِلّة احترامِهم لأساتذتِهم قائلاً:

– هل تستطيعون قول هذا بمحْضَرِ الأستاذَين؟

وحين سكتَ الجميعُ، قال:

- كلُّ كلام جارحٍ يقالُ وراءَ ظَهْرِ المعني به فهو غِيبةٌ، وهو حَرامٌ في الإسلامِ وفي جميعِ الأديان، وجُبْنٌ في المجتمع!

فقال حمزةُ:

- إننا نمزحُ فقط!

ولِيتَجنبَ الأستاذُ الجدالَ انتقلَ إلى موضوعِ الأحلام وقال:

- الطَّيرَانُ في الأحلام، كما يفسِّره علماءُ النفسِ، هو رغبةٌ مكبوتةٌ في الهُروبِ إلى الحريَّة. قرأتُ ذلك في كتابٍ للعالِمِ النفساني «فْروِيدْ»، فذكَّرني بحادثٍ كادَ يودي بحياتي في طفولتي!

وأرهف الجماعةُ آذانهم، فقال الأستاذ:

- في أول عهدي بالكُتَّاب كنت أحلُمُ كثيرًا أنني أطيرُ. أطير بذراعيَّ بدَلَ الجناحين. واختَلَطَ عليَّ الحُلُمُ بالواقعِ فظننتُ أني قادرٌ فعلاً على الطيَرَان! وذات يوم وقفتُ على حافَّة السَّطح أتهيأ للارتماء وسَطَ الدارِ. ورآني أخي فقرأ فِكْري، واستمهلني صائحًا: «انتظر حتى أصعدَ أنا ونطيرَ

معًا! وبمجرّدِ صعودِه ارتمى عليَّ وأمسكني من الخَلْف، وقد بدأتُ أُرفْرِفُ بذِرَاعَيَّ لأُحلِّقَ!

فعلَّق آخرُ:

– ولكنَّ ميمونًا ليست له هذه المشكلةُ. فقد حرَّره والدُه من حَبْسِ القِسْمِ وعذابِ الامتحانات!

– بالعكس! إنه حرَّرني من سِجنٍ جميلٍ، في نهايته حُرِّيَّةٌ كبيرة وحياةٌ كريمة، وأدخلني سجنًا مُظلمًا ينتهي بأصحابِه إلى سجنٍ أشدَّ ظلامًا...

فقال أحدُ الأولادِ:

– يا إلهي! وكنا نظنُّك خرجتَ قَبْلَنا إلى عالم المالِ والأعمالِ والسياراتِ الجديدةِ والزوارقِ النفَّاثة السريعةِ، وأنك سعيدٌ للغايةِ!

فردَّ عليه الأستاذُ:

– لا تنكأ جُرحَ ميمون! ولْنُفكِّرْ معه جميعًا في مَخْرَجٍ من مأزقه.

ونزل صَمتٌ ثقيل على الجماعةِ، وارتفعَ صوتُ محرِّكِ

السيارةِ وَهي تتسلّق الجبلَ الوعَرَ بعَجَلاتها الأربعِ وكأنها نَمِرٌ في أَعقابِ طريدةٍ! وأحسَّ ميمونٌ بالمسؤوليةِ عن الوُجومِ الثقيلِ، فصاحَ في رِفاقِه:

– إيه! انشرحوا! فلَسْنا في مأتَمٍ! وأنا أبحثُ عن حلٍّ لمشكلتي، ولا يأسَ مع الحياة!

فصاح نورُ الدينِ خارجًا من صَمتِه الحزين ومستجيبًا لرغبةِ صديقٍ منشداً بعض الأبيات الشعرية الحماسية.

وانضمَّ إليه الباقون في ترديد بقيَّةِ الأبياتِ بأصواتٍ حماسيَّةٍ عالية...

* * *

ووقفتْ بهم السيارةُ على القمَّةِ المسطَّحَةِ، فخرجوا يُرَكِّبون أجنحتَهم ويتهيئون للتَّحليقِ. وطاف الأستاذُ بهم واحداً واحداً يفحَصُ الأجنحةَ ويتأكَّد من سلامتِها. واصطفَّت الجماعةُ واحداً خلف الآخر، وركض ميمونُ صوب حافة الجُرْفِ، وانطلق في الفضاءِ الواسع، يُطلُّ على الوادي الأخضرِ العميق.

واستطاع تَعَرُّفَ حُقولِ الكِيفِ المنتشرةِ على مَدِّ البصَرِ. لمْ يكنْ بالوادي طريقٌ للسيارات. وكان مزارعو الكِيفِ ينزلون إليه من شِعابِ الجبالِ بالبِغالِ والحميرِ. وكانوا يزرعونَه ليلاً ويحصُدونَه ليلاً، رغمَ أن دوْرياتِ الدَّرَكِ لم تكنْ تستطيع الوصولَ إلى هناكَ. إلى جانبِ أنَّ عدداً من حُرَّاسِ الغابةِ والدركيِّين كانوا يتقاضَوْنَ أجوراً شهريَّةً مقابلَ غَضٍّ الطَّرفِ والإشعارِ بحَمَلاتِ التفتيشِ.

كان على المُجنَّحين أن يَصِلوا إلى الجبلِ المقابل، ويحطُّوا على قِمَّتِه، ثم يُحَلِّقوا عائدين. ووقف الأستاذ ينظُر بقَلَقٍ خفيفٍ إلى السِّربِ الآدميِّ المحَلِّق بمهارةٍ وشجاعة، وقد أحسَّ بالاعتزازِ بنجاحِ تدريبِه إيَّاهم على التَّحْليقِ في هذا الوادي الذي يتقلب فيه اتجاهُ الريحِ بسرعةٍ، ولا يستطيعُ الطيرانَ فيه إلا ذَوُو الأعصابِ القويَّةِ.

وعلى الجبلِ المقابل، جلسوا يستريحونَ ويشربون ما أحضروا معهم من مرطِّبات، ويتضاحكون بأصواتٍ عالية. ثم طاروا إلى قمَّةٍ مقابلةٍ غَيرِ التي قَدِموا منها، ومنها إلى قِمَّةٍ ثالثة

بالطَّرَفِ المقابلِ. ولم يزالوا يُحَلِّقون فوقَ حقولِ الكيفِ، وميمونٌ يحْصيها ويُسَجِّلُها في ذاكرته بأحجامِها التقريبيةِ.

ورجعوا بعد ذلك للغَداءِ والاستراحةِ، ثم عادوا إلى التَّحْليقِ حتى مالتْ الشمسُ للمغيبِ، وأظلمتِ الوِديانُ، فرجعوا إلى القاعدةِ مُرْهَقين، ولكنْ في منتهى النَّشْوةِ والاغتباطِ! كانت سباحتُهم في الفضاءِ تُحَوِّلهم إلى مخلوقاتٍ أُخرى، إلى طيورٍ آدميَّة عاقلةٍ شاعرةٍ قادرةٍ على الاستمتاعِ برَوْعة التَّحْليقِ وبجمالِ مناظرِ الطبيعةِ كما تُرى من الفضاء...

كانوا يتحكَّمون في أشرِعتِهم الملوَّنةِ الجميلةِ من مَقابِضها، فيركبون بها أمواجَ الريح الخفيَّةِ، ويصعدون حتى يُطِلُّوا على القِمَمِ المقابلةِ ويرَوْا ما وراءها، ثم يهبطون في جَوْف الوادي حتى يكادوا يَلمِسونَ الأعشابَ بأحذيتهم...

وفي طريق العودة أخذوا يتسابقون إلى حِكايةِ مُغامراتِهم وتجارِبهم الجديدةِ حتى دخلوا المدينةَ بين المغربِ والعِشاءِ. وقْبل أن يتفرَّقوا اتفقوا على الموعدِ القادم. واقترح الأستاذُ شوراق أن يكونَ بعد الامتحاناتِ.

* * *

وفي البيت، تظاهرَ ميمونٌ بالاقتناعِ برأي والدِه، وبأنَّ التعليم أصبح منخوراً فاسداً لا يؤدي إلى نتيجة، خصوصًا بعد تكاثُرِ الخرِّيجين والأطباء العاطلين. واغتبط الوالدُ باقتناعِ ابنِه بعدمِ جَدوى الدراسةِ وبحكْمَته التي أنضجَتْها التجاربُ والأيامُ، فقرَّبه إليه، وعامَلَهُ بلطفٍ ورقَّة.

وحول مائدة العَشاءِ، كان ميمونٌ يحدِّث والدَه بأفكاره لتطويرِ تجارةِ الدُّكانِ، وفَتْحِ أجنحةٍ جديدةٍ فيه للآلات الإلكترونية الحديثةِ. واقترح عليه استيرادَ حواسيبَ مُستعملةً رخيصةً وبرمَجَتَها بالعربية وبَيْعَها بأثمانٍ مناسبةٍ وبتسهيلاتٍ في الأداء.

واقترح أن يستأْجِر خبيراً في الحاسوبِ لإعطاءِ دروسٍ مسائيةٍ مجانيةٍ في الدُّكان لمن يفكِّرون في شراءِ الحاسوب. وانتقل حَماسُه إلى بقيَّة أعضاءِ أُسرتِه حين قال لهم إن هذه هي تجارةُ المستقبلِ! وهي تجارةٌ شريفةٌ ونافعةٌ لِمُمَارسيها وللناسِ. وعبَّر والدُه عن ارتياحِه لأفكارِه ورضاهُ عنه بقوله:

- الدُّكان لك. افعلْ فيه ما شئت!

*   *   *

وانكبَّ ميمونٌ على الدراسةِ في أوقاتِ فراغِه بالدُّكانِ.

ولحسْنِ حظِّه تغيَّبَ والدُه في رحلةِ عَمَلٍ بالخارج، أثناءَ موسمِ الامتحاناتِ، فطَلَبَ من أخيه الأكبرِ إدريسَ القيامَ مقامَه في الدُّكَّانِ، وذهبَ لأداءِ الامتحانات.

وكانَ يخرُجُ مبتهجًا من امتحانِ كُلِّ مادَةٍ لإجاباته الصائبةِ والدقيقةِ على الأسئلةِ! وكانت النتيجةُ كما توقَّعَ. نالَ الشهادةَ الثانويةَ بتقديرِ ممتازٍ! وعُلِّق اسمُه على رأسِ لائحةِ الشَّرَف!

وحين عاد والدُه من سفرِه تكاثر المهنِّئون لَهُ، فَنَدِمَ على موقفه القاسي السابقِ من دراسةِ ابنِه، وشَعَرَ باعتزازٍ غامضٍ، خُصوصًا حين هنَّأه المديرُ، وكأنه لا يعرِفُ شيئًا عن منعِه لميمونٍ من الذَّهاب إلى المدرسةِ. وقال له حمادي الرَّخا:

- ما جدوى كلِّ هذا التَّعبِ إذا لم يكنْ يُوَصِّلُ إلى شيء!؟

فقال المديرُ منزعجًا :

– لا تسمعِ الكلامَ الخاوِيَ! بعضُ الناس يقولون، هذه الأيام، عن المدارس والجامعاتِ إنها مصانعُ للبِطالةِ والعاطلين. وهذا كلامٌ لا يقوله إلا الجهَّالُ وأعداءُ العلمِ. فالعلمُ لا يُكسَبُ للحصولِ على وظيفةٍ، ولكن للرَّفعِ من مستوى الإنسانِ الفكري وتمييزِه عن الدهْماءِ، وتوسيعِ نظرته إلى العالَم مِن حولِه، وتوعيتهِ بالماضي والحاضر، ليستطيع التنبؤ بما سيكونُ في المستقبلِ. ولِيعرفَ مكانة بلادهِ داخل المجتمعِ الدَّوْلي. إلى جانبِ تعميقِ خِبرتِه باختصاصٍ معيَّنٍ، كالطِّبِّ والهندسةِ والقانون والاقتصادِ والتكنولوجيا والفلسفةِ والتربية والآداب والفنون. بمعنى أن المدرسةَ تُلَقِّنهُ حِكمةَ العصور الخاليةِ، وتختَصِرُ له التجربةَ البشريةَ في بِضعِ سَنواتٍ حتى ينطلقَ منها إلى صُنعِ عالَمِه، دونَ أن يُكرِّرَ أخطاءَ السابقين!

ولمْ يكنْ الرَّخا قد سَمع مثلَ هذا الكلامِ من أحدٍ مِن قبلُ، فَفتح فَمَه مندهشًا مبهوراً بحُسنِ كلامِ المدير، وأخذ يردد : « اللهُ يرحمُ من قرأ، السي المديرا »

*　*　*

وتوقَّع حمادي الرَّخا أن يطلبَ منه ابنُه ميمونٌ السَّماحَ له بالالتحاقِ بالجامعة، ولكنَّ هذا لم يفعل، ولم يستطعْ هو مفاتحتَه في ذلك!

وتفرَّغ ميمونٌ إلى تحقيقِ أمنيتِه في تحويلِ تجارة والدِه التضليليةِ إلى تجارةٍ حقيقيةٍ مزدهرةٍ. ففتح في الدُّكان جناحًا للآلاتِ الإلكترونية، بِما فيها قسمٌ للإصلاحِ والصيانة.

وجعل من الطابَقِ الأعَلَى للدُّكان الواسعِ مدرسةً مسائية لتدريبِ الطلبة وزبائن الدكان على الحاسوب. وتعاقدَ مع خبيرٍ شابٌّ صديقٍ له ليقومَ بالمهمَّة. واشترك في الإنْتِرْنِتْ، وفتح ناديًا للرَّاغبين في استعمالِها بمقابلٍ مُشجِّعٍ، وبِتخفيضٍ مناسب للطالبات والطلبة.

وكان هو أوَّلَ تلميذٍ لخبيرِ الحاسوب. وتعلَّم الدخولَ إلى الإنترنت والإبحارَ في عوالمها. واستهْوَتْه الشبكةُ العالميَّة وأخذتْ بمجامعِ لُبِّه، فأخذ يتركُ التلفزيونَ ويصعَدُ إلى غُرفته بعد العَشاءِ، ويدخلُ الشبكةَ ولا يخرجُ منها إلا حين يُحسُّ بالإرهاقِ ويغلِبهُ النُّعاسُ!

* * *

وذات لَيلة طاب له أن يستدعيَ اسمَه العائليَّ على سَبيل التسليةِ والتحدِّي لهذه الآلة الجبَّارة، فَفوجئ بِوجودِه مع عددٍ منَ الأسماءِ المعروفةِ في بلدته تحت عنوانِ «تجَّارُ المخدِّرات - زُرّاع القُنَّبِ - الكيفِ». ودقَّ قلبه بعنفٍ للمُفاجأة! وجَلَس أمام الشَّاشةِ المضيئة ذاهلاً من شدَّة الصَّدمة!

وفكَّر بحَسرةٍ: هكذا يمرَّغُ اسمُ أسرتِه في الأوحال الدوْليةِ!

وتوالدتْ في ذهنِه التساؤلاتُ والتخوُّفاتُ. وأطفأ الحاسوبَ وأوَى إلى فراشِه، واستلقى في الظلامِ يفكِّر ويحسُبُ عواقبَ هذه الكارثةِ.

إذا كان اسم والدِه على الشبكةِ الدوْليَّة فلابدَّ أنه عند الوكالةِ الدوليةِ لمحاربة المخدِّرات، وبالتالي فهو عند وزارةِ الداخليةِ ببلادِه. ومسألةُ القبضِ على والدِه أصبحت مسألةَ وقتٍ لا غيرُ! ولا بدَّ أنهم جميعًا تحت المراقبةِ. وإذا قُبِض على والده وحُوكِم وسُجِن وصُودِرت أملاكُه فستنفجِر الأُسرَةُ كلُّها، ويلحق العارُ والشنار بأفرادِها أينما ذهبوا، ومن بينهم هو!

وفكَّر في أن يُخْبِرَ أباه بما عَثَر عليه. ولكنَّ أباه رجلٌ أميٌّ عنيدٌ منغلقٌ في عالَمه الصغير، لا يعرفُ شيئًا عن العالَم الخارجي، ولا يصدِّقُ ما تقوله وسائلُ الإعلام، ويعتبرُها أوهامًا لا علاقَة لها بحياتِه؛ لذلك فهو لن يُقدِّرَ خطورةَ وجودِ اسمِه في لائحةِ أباطرةِ المخدِّراتِ الدَّوليين.

وأرَّقتْه الصَّدمةُ، فَباتَ يَتقلَّبُ في فراشِه، ويفكِّرُ في خِطَّة لإخراجِ والدِه من هذه الورطةِ الكبيرةِ وشَطْبِ اسمِه من الشَّبكةِ الملعونة...

وخطرتْ له فكرةٌ فعاد إلى إشعالِ الحاسوب والدخولِ إلى الإنترنت هذه المرَّة بحثًا عن مُبيدات الأعشاب الطفيليَّة.

ووجدَ في ملفٍّ وكالة محاربةِ المخدِّرات ورقةً تقنية تحتوي على جميعِ أسماءِ مُبيدات الأعشاب الضَّارَّة ونِسَب مكوِّناتِها الكيماوية ومقاديرِ الاستعمالِ في كل هكتار.

وأخذ عنوانَ الوكالةِ على الإنترنت ورقم فاكسِها، وكتَبَ رسالةً يلتَمِسُ فيها تزويدَه بما يكفي لرشِّ عددٍ من الهكتاراتِ.

وارتاح عند وصولِه إلى هذه النتيجةِ، ونام نومًا عميقًا...

* * *

وحوالَي العاشرةِ صباحًا أيقظَتْه موسيقَى المذياعِ المنبِّه التي كانت ترتفع بالتدريج، إذا لم يُبادر بِضَغْطِ زرِّها لإسكاتها! مدَّ يدَه وأسكتَ الموسيقَى فلاحظَ ورقةً تنتظرُه على جهاز (الفاكس). وخفَقَ قلبُه وهو يقرؤها. لم يكنْ يتوقَّع الجوابَ بهذِه السرعة وهذه الكفاءة!

وتنهَّد وقال في سِرِّه: «بهذا غلبونا!»

كانت الرسالة تُخبِرُه بأنَّ المادة التي طلبَها في طريقِها إليه بالمجَّانِ مُساعدةً من الوكالةِ في القضاءِ على آفةِ الكيفِ المنتشرةِ في المنطقةِ.

واتَّصلَ هاتفيًا بالأستاذِ سي محاند شوراق، فقيل له إنه طلَعَ إلي الجبلِ مع أعضاء «نادي المحَلِّقين» الذين نزلوا ضيوفًا على «نادي حَمَام السَّلام».

وتذكَّر أنه كان مدعوًّا للانضمامِ إليهم فاعتذر بأَشْغالِه.

وطلب رقمَ هاتِفه النقَّالِ من زوجتِه، واتصل به هناك في الجبلِ. وجاءه صوته لاهثًا متقطعًا. وحين سأله ماذا به، قال إنه

يكلمُه وهو مُحَلِّقٌ في الهواء! وأخذ يصف له روعة المشهد والجبالِ المغطاةِ بالثلجِ أو الغارقة في الضّبابِ أو السَّحاب، تبدو قممُها الشامخةُ كجُزُر في محيط هائج.

وقال له ميمونٌ إنه يريد أن يُخبرَه بشيءٍ هام ويأخذَ رأيَه فيه. فَوعدَ الأستاذُ بالمرور عليهِ في طريقِ عودته ذلك المساءَ.

وفي عَصْر ذلك اليوم، وصلت شُحنةُ المبيدِ في حوالي عشرةِ أكياسٍ من البلاستيك. وأدخَلَها ميمونٌ إلى المخزنِ خلفَ الدُّكَّانِ ودفَع للسائقِ إكراميَّةً سخيَّةً. ودخل إلى مكتبِه ليرتِّبَ أفكارَه، ويخطِّطَ للخُطوةِ القادمة.

كان واعيًا بأن العمليةَ التي يخطِّط لها خطيرةٌ جدًا، وأن المتضرِّرين منها رجالٌ أقوياءُ بعضُهم رجالُ سلطةٍ وأمنٍ وسياسةٍ ومنظماتٍ سريَّةٍ إجراميَّةٍ دوْليَّة. وأن آلةَ التهريبِ والمخدِّراتِ تعملُ بكفاءة رهيبةٍ، وتطحنُ كلَّ من يقِفُ في طريقِها بلا رحمةٍ! وتوتَّرتْ أعصابُه فتركَ مقعَدَه وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

ولم يعد يستطيعُ إخفاءَ قَلَقِه أو كتمانَ سرِّه، فانفرد بأخيه

الأكبرِ إدريس في غُرفته بعد الغَداءِ، وأَطْلَعَه على لائحة زُرَّاع الكِيفِ التي استخرجها من الإنترنت. وقال له إنه يخشى أن يكونَ الإعلانُ عن الأسماء إنذاراً ومقدِّمةً لحمْلَة اعتقالات!

ولم يُصَدِّق إدريس الذي كان يدَ والدِه اليمنى في زراعةِ وتسويقِ النبتةِ المحظورةِ حتى أجلسَه ميمونٌ إلى جانبِه أمامَ الحاسوبِ، وواجهَه باللائحةِ على الشَّبكَةِ العالميَّة. ودق على اسم والدِه بالمؤشِّر، فخرجتْ له نُبذةٌ عن حياته وتاريخِ بدايةِ دخوله لعالمِ المخدِّرات، وأسماءُ الأشخاصِ والمنظَّماتِ التي تَعامَل ويتعاملُ معها منذ بداياته المبَكِّرةِ! وظَهَرتْ خريطةُ مزروعاتِه ومكانُها من البَلدِ والعالَمِ.

وحين رأى إدريسُ اسمَه بعينيْهِ، استولى عليه الخوفُ، وأخذ يسألُ أخاه:

ـ ماذا سنفعل الآن؟ إنها فضيحةٌ دوْلِيَّةٌ!

فَطَمْأَنه ميمونٌ، وأَطْلَعَه على خُطَّته وعلى الأشواط التي قَطعَ لتنفيذِها. وأراه أكياسَ المُبِيد المركَّزِ الذي وَصَلَه من الوكالةِ.

* * *

وبين المغـرب والعـشـاء، مَـرَّ الأسـتـاذُ شـوراقُ بالدُّكـانِ، فاستقبله ميمونٌ وأخوه إدريسُ مُرَحِّبيْنِ، وكأنه عائدٌ من سَفَرٍ بعـيـدٍ! وجلس الثـلاثةُ في مكتبِ الدُّكـان، وأقْـفَلَ مـيـمـونٌ البابَ، ووضع أمامَ الأستاذِ لائحـةَ المتورِّطيَن في زِراعة الكيف وتجارتِه، كما أوردَتْها الشبكة العالمية. وقرأ الأستاذ الأسماء فإذا هي لأناس مُحترَمين من أعيان البلد الذين لم يكن يَخطُر على باله تَورطُهم!

ووقعت عيناه على اسم أبيه وعَمِّه فصُعِقَ وارتعشتْ يداه، فوضع إدريسُ يدَه على يدِ الأستاذِ مطمئنًا، وقال:

– نحن في هذا كلنا... فلا تقلق! وأنصِتْ إلى ميمونٍ. فقد عثَر على حَلٍ أعتقدُ أنه سيُعجِبكَ.

وأحسَّ الأستاذُ بالارتياحِ، وتنفَّسَ الصُّعَداءَ، وكأنه كان على شَفَا هُوَّةٍ عميقةٍ فَجاء مَن أنْقَذَه منها. وتحمَّس للفكرةِ، واتفقَ مع الأخوين على اللقاءِ في اليوم الموالي أمام باب مخيَّم الشباب، للصُّعود مع أعضاء النادي الضيف ونادي حَمَام

السلام إلى الجبل. وطلبَ منه ميمونٌ أن يأخذَ معه بعضَ أكياس المُبِيدِ، فأخذَ خمسةً منها وتَرَكَ الباقيَ لإدريسَ ليأخذَه في شاحنته. وباتَ الثلاثةُ ليلةً عامرة بالأحلام والكوابيس...

وفي الصَّباحِ، طلبَ إدريسُ من أخيهِ ميمونٍ أن يسبِقَه إلى المخيَّم، ويصعَد مع فريقه إلى الجبل. وقال له إنه سيلحَقُ بهم هناك بالأكياس الباقيةِ، بعدَ القيام بشُغلٍ كلَّفَهُ به الوالدُ.

* * *

ومع السابعةِ صباحًا، خرجتْ أربعُ سيارات من نوع «أربعة في أربعة» ـ 4x4 ـ تحملُ أعضاءَ الناديَين وتوجَّهتْ صَوْبَ الجبل. ولمْ تمضِ ساعة من التَّسَلُّق حتى وصلت القمَّةَ، وخرجَ ركَّابُها لتركيبِ أطرافِ أجنحتِهم استعداداً للتَّحليق فوق الوادي الأخضرِ العميقِ.

وركَز الأستاذ شوراق في الأرض عصًا على رأسها كيسٌ مفتوحٌ يعملُ ككشَّافٍ لاتجاهِ الريح، ووقفَ وسَطَ قَلْقَةِ المجنحين لإعطائهم بعضَ الإرشاداتِ، بينما يَمْلأُ ميمون أكياساً من البلاستيك بمُبيدِ الكيفِ. وحين انتهى الأستاذُ من

إرشاداته، التفتَ إلى ميمونٍ وقال للجماعةِ:

- يبدو أن صديقَنا ميمونًا يريد أن يُخبرَنا بشيءٍ هامٍّ.

ووقف ميمونٌ ينفضُ يديه، وقال:

- فعلاً، فأنا مدينٌ لكمْ بشرح العمليةِ التي سأقومُ بها الآن. فقدْ علمت عن طريق الإنترنت أن وكالةَ محاربةِ المخدِّرات وضعتْ اسمَ والدي وعددٍ من أهل بلدتنا الصغيرةِ في لائحة زُرَّاع الكيفِ بهذه المنطقةِ. ومعنى ذلك أن حَمْلَةَ اعتقالاتٍ أصبحتْ وشيكةً! وقد اتفقنا أنا والأستاذُ شوراق على إتلافِ شواهدِ الإثباتِ ضِدَّهم، بإبادة نبتة الكيفِ من أرضِنا وسَكَتَ الباقون. فقال الأستاذ:

- لن يلومَكم أحدٌ إذا لم تتطوعوا، فالمهمَّة خطيرةٌ. وهي في الواقع حَربٌ ضدَّ إمبراطورية الشَّرِّ العالميةِ! ولكنها في الوقت نفسه إنقاذٌ لسُمعة عددٍ من المواطنين المغرَّرين المتعاملِين في هذه السُّموم، ومنعٌ لها من الوصول إلى مُرَوِّجيها المجرمين ومستهلكيها الضَّالِّين.

فأضاف نورُ الدين:

ـ ويجب ألا ننسى أنها دفاع عن سُمْعَة بلادنا ودِيننا...

وأخرجَ ميمونٌ ورقةً من جيبِه، ووجَّه الكلمة لأعضاء نادي حمَائم السَّلام:

ـ ربما لم يصدِّق بعضُكم ما قاله الأستاذ عن أهالي بَلدتنا المتورِّطين. فأغلبهم شركاءُ سرِّيون لزُرَّاعٍ معروفين. وقد أخرجتُ نسَخًا من اللائحة التي نشرتْها الإنترنت حتى يروها بأنفسهم.

ومدَّ الورقة للذي على يمينه، وطلبَ منه قراءةَ الأسماء بصوت مرتفع. وبدأ هذا يقرأ أسماءَ أشخاصٍ معروفين حتى وصل إلى اسم أبيه فتردَّد في قراءته، فسحب ميمون الورقة منه وأتم القراءة. بدأ باسم أبيه وعمِّه، ثم ذكرَ آباء عدد من زملائه في نادي حمَام السَّلام الحاضرين.

واختلفتْ ردود فعلِ الفِتيانِ بين مكذِّب ومستغرِبٍ وغاضبٍ وراغبٍ في تمزيقِ الورقة! فتدَخّلَ الأستاذُ لتهدئةِ الخواطِر، وقال:

ـ لا داعيَ للخَجلِ الآنَ بعد أن انكشفتْ الحقيقةُ! أبي

وأخي البِكر، كذلك، متورطانِ كما سمِعتُم في هذه المهنةِ القذرة! كانا مزارعين تقليديين لهذه النبتة الخبيثة قبل أن تكسبَ سمعتَها العالميةَ السيِّئة. ولم يكنْ أحد ينظر إليها باحتقارٍ أو تجريمٍ. ولكنَّ الأحوالَ تغيَّرت بسرعة، ولم يستطع أهلُ بلدتنا التَّكيُّفَ معها؛ لذلك علينا أن نُنْقِذَهم من أنفسِهم بالرغم منهم! وذلك قبل أن تحلَّ الكارثةُ، ونُصبحَ جميعًا مُضغةً في أفواهِ الصديقِ قبلَ العدوّ!

وهنا تقدم رئيسُ نادي المحَلِّقين، ورفع يدَه وقال:

- نادينا معكم!

وزال تردُّد نادي حمَام السَّلام، ورفعوا أيديَهم موافقين على المشاركةِ ووقفَ ميمونٌ يوزِّع عليهم أكياسَ المُبيدِ، والأستاذ يُعيِّن لكلِّ طيَّار البُقعةَ التي عليه أن يرشَّها بالمسحوقِ.

انطلق سِربُ الطيَّارين المجَنَّحِين كلٌّ واحد في اتجاه. وحين وصلَ كل طيار إلى بقعته رشَّ فوقها المسحوقَ بالتساوي، وعاد ليتزوَّدَ بالمزيد. وكانت المزارعُ أكثرَ من أن يرشُّوها كُلَّها في يومٍ

واحدٍ، فرشُّوا القريبةَ منهم على أن يعودوا لرشِّ البعيدةِ في اليوم الموالي. وعاد المجنَّحون إلى قاعدتِهم وقد استولى عليهم الحماسُ والاعتزازُ...

وبينما هم يتزودُّون بأكياسٍ مليئةٍ أخرى إذ سَمِعوا أزيزَ طائرة قادمةٍ من وراء الجبل. وخاف الجميعُ أن تكونَ طائرة تابعة للدَّرَك أو لأحد زُرَّاع الكَيفِ.

فأخفى كلٌّ واحد كِيسَه، ونظرَ إلى السماء.

وظهرتْ الطائرة فعَرفها ميمونٌ ولوَّحَ لها بيديه. كانتْ الطائرة الزراعيَّة الصغيرة في مِلكِ والدِه، يستعملها في رشِّ البذور ومبيداتِ الحشرات والأعشاب الطفيلية على الكيفِ.

وحلَّقتْ الطائرةُ فوقهم واقتربتْ منهم حتى رأى ميمونٌ وجهَ أخيه وهو يُلوِّح له بهاتفٍ نقَّال. وفهمَ ميمونٌ قصدَه، وأسرع إلى السيارةِ، وعادَ بهاتِفِه النقَّال وهو يَرِنُّ. وجاءه صوت أخيه إدريسَ وهو يسأله عن البِقاعِ التي رشُّوها، فأعطاه هذا أسماء أصحابها، فودَّع وأقفلَ ونزل بالطائرة وسط الوادي إلى أن وصل إلى المزارع التي لم تُرَشّ، وأفرغ حمولتَه البيضاءَ

فوقَها بين صِياح الجماعةِ وقَفزِها.. فقد رشَّ وحدَهُ أضعافَ ما رشُّوه مجتمعين!

وخرجَ من الوادي رافعًا إبهامَه علامةً للنجاح. وبالهاتف أخبر أخاه أنه سيعود إلى المطار لملْءِ خزَّانه ويرجعُ، وأن في إمكانهم التَّحْليقَ الآن إلى أن يعود. وملأ أعضاء الناديَين أكياسَهم وطاروا مُحَلِّقين فوق المزارع البعيدةِ وهم يتسابقونَ ويتصايحونَ ويتضاحكون في خِفَّةٍ كبيرة ونشوة عارمة لا يحسُّ بمثلها إلا المحَلِّقون! إن ما يقوِّي نشوَتَهم وجودُهم الدَّائمُ على حوافِّ الخطرِ، خطرِ تقلُّبِ الريحِ أو الاصطدام أو تمزُّقِ الأجنحة.

وتذكَّر ميمونٌ، وهو يَصبُّ كيسَه، سورةَ الفيل، وتخيَّل جماعته طيرًا أبابيل، والمبيد حجارةً من سجِّيل، والنبتة الخبيثة المنتشرة في الوادي جيشُ أصحابِ الفيلِ، وصاحَ في نشوته بأعلى صوته:

– سنهزمكم يا أبرَهَاتِ الكَيفِ الملاعين!

وما عادوا إلى قواعدهم حتى ظهرتْ طائرة إدريس فوقَهم،

وتوجَّهت إلى أطراف الوادي البعيدة حيث رشَّت حمولتها وعادتْ.

ولمْ يأتِ المساء حتى كانت جميع مزارع الكيف الكبرى قد رشت بالمبيد، ولم يعد يُرجى للنبتة فيها قيام قبل سنوات عديدة!

واتَّفَقَ أبناء أصحاب المزارع المرشوشَةِ أن يكتموا سِرَّ العمليَّة عن آبائهم اتِّقاءً لغضبهم، وأن ينتظروا حتى يكتشفوها هم بأنفسهم. فقد يعتقدون أنها من صنع دودة الكيفِ، فيهبُّوا لعِلاجِها...

وفي طريق العودة خطَرتْ لنورِ الدين فكرة، فهمسَ بها إلى ميمون الجالس إلى جانبه. واسْتَحْسَنَها هذا جيداً، واقترحَ تعميمها على الجماعة، وأخذِ رأيهم فيها. وصادفتْ الفكرة قَبولَ الجميع، بلْ وحَماسهم لها...

* * *

وبَيْن العشاءَين، وقفتْ السيارة على باب الفقيهِ أمقران، وخرجَ منها ابنه نورُ الدين والأستاذُ شوراقُ وخمسةُ فتيان

آخرون من أبناء أعيان المدينة من أعضاء نادي حمَامِ السَّلام.

ودخلَ نور الدين واستأذن والدَه في إدخالِهم، فخرجَ وفتح لهمْ البابَ بنفسه.

وبعد تبادلِ التَّحِيَّات والتَّرحِيبِ دخلَ الأستاذُ في الموضوع مباشرةً، فأخبرَ الفقيهَ باللائحةِ التي ظهرتْ على الإنترنت بأسماء زُرَّاعِ الكِيفِ من أهل البلدة، وكيف أن حملةَ اعتقالاتٍ لابدَّ قادمةٌ بكل ما يتبعُها من فضائحَ ومحاكماتٍ ومصادراتٍ للأموال وخرابٍ للبيوت...

فأخذ الفقيهُ يستغفرُ اللهَ، ويسألهُ أن يجعل في قضائه اللُّطْفَ. ثم سألهم:

ـ وماذا تقترحون؟

فقال الأستاذ مُطَمْئِنًا:

ـ لقد تصرَّفنا نحن، ورشَشْنا مِنَ الجوِّ جميعَ المزارعِ الكبرى بمبيدِ نبتة الكِيفِ. ولن تمضيَ أربع وعشرون ساعةً حتى تُصبحَ قاعًا صَفْصَفًا، عاريةً من النبات الخَبيثِ! ونحن متأكِّدون من أنه لن ينبتَ مرَّة أخرى إلا بعدَ سنواتٍ. ولكننا

نريد أن نعطيَ درسًا لأصحاب المزارع لينتهوا عن زَرْعِهِ بصفةٍ دائمةٍ...

فسأل الفقيهُ:

ـ كيف؟

فقال الأستاذ:

ـ هنا يأتي دورُك كخطيب جُمُعَةٍ بالمسجدِ الأعظم.

ـ وماذا عليَّ أن أفعل؟

ـ تُهيِّئ خطبةً خاصة تهاجمُ فيها الكِيفَ والحشيشَ وجميعَ أنواع المخدِّراتِ. وتُنْذِرُ زُرَّاعَها ومُروِّجيها ومستهلكيها بالخزي والعارِ في الحياة الدنيا وبعذابِ النار في الآخرة! وَتخبرُ بأن الشبَّكة الدوليَّة قد نشرتْ لائحة زُرَّاعِ الكَيفِ ببلدتنا، وبأن حملةَ اعتقالاتٍ واسعةً في الطريق. وتدعو اللهَ بعد ذلك أن يحفظَ بلدتَنا وأهلَها من الفضيحة، ويُنقِذَهم من بلاءِ زراعةِ الكيفِ وما تجرُّه من ويلات! وتدعو على نبتةِ الكيفِ بالعُقْمِ والبوارِ، وعلى المتمسكين بغرسِها بالويل والدَّمار!

ووجدتْ هذه الدعوةُ صدىً عميقًا في نفس الفقيه،

وأحسَّ بابتهاجٍ كبيرٍ لهذه الأمانة النبيلةِ التي أُلقيتْ على عاتقِهِ، وقرَّر حَمْلَها بعزيمةٍ وإيمان. فقد كان هاجسُه الأكبرُ القضاءَ على الكِيفِ، منذ أنْ عاد من القَرويين إلى بلدَتِه. كان يعرفُ أثرَه المخرِّبَ على عددٍ كبيرٍ من شبابِ البلدة. كثيرٌ من رُفَقاء صِباه استولى على عقولهم البريئة ضَبابُ الكِيفِ وسعادتُه الوهميَّة، وقَتلَ طموحَهم، فتركوا الدِّراسة والعمل، وانضموا إلى عصابات المخدِّرات، ليَبقُوْا قريبين من مصدَرِ نشوتِهم، وعاشوا على هامش الحياة صُفرَ الوجوه، مخرَّبي الأسنانِ، وَسخِي المظْهَر، ضِعاف العقولِ، أقرب ما يكونون إلى المخبولين منهم إلى ناسٍ عاديين أو مواطنين صالحين. وأغلَبهم لم يتزوجوا ولم ينجبوا، وبَقُواْ مدعاةً للسُّخرية بين النَّاس!

وسَرَّب نادي حمَام السَّلام أخبار خطبةِ الجمُعة الخاصَّة جدًّا، واكتظَّ المسجدُ بالمصلين، وفُرِشَت الحُصُرُ حوله، وعُلِّقتِ الأبواقُ خارجَه وكانت الخطبةُ فعلاً غيرَ عادية. فهي أول خطبةٍ يُشير فيها خطيبٌ إلى الإنترنت ووكالة محاربة المخدِّراتِ ولائحةِ المتورطين من أبناء البلدة، دون ذكْرِ أسمائهم.

وأصابَ الذُّعرُ الحاضرينَ منهم، فأخذوا يتملمَلون في مجالسِهم، وينظرونَ حواليهم ليَروا هل ينظرُ إليهم أحدٌ!

وفي خِتام الخطْبة، دعا لأهل البلدة بالهداية والتَّوبةِ والسِّتْرِ، وعلى دولة الكِيفِ بالزَّوال والاضْمِحْلال... وسَرَتْ عدوى خشوعه وبكائه إلى جميع المصلِّين، فخشعتْ قلوبهم، ودمعتْ عيونهم، واهتزتْ جدرانُ المسجدِ بأصواتِ تأمينِهم على دعائهم.

* * *

وشاعَ بين المصلِّين وهُمْ يغادرون المسجد خبرُ وصول لجنةِ الوَكالةِ العالميةِ لمحاربة المخدِّرات إلى البلدة في رفقة قائدِ الدرك وخروجِها لمشاهدة مَزارع الكِيفِ ومعرفةِ أصحابها ووضعِ الحكومة أمام مسؤوليتها الدولية.

وزُلزلَ حمادي الرَّخا، والدُ ميمونٍ، زلزالاً شديداً لسماعِ الخبرِ! ولم يَعُد يدري ما يفعل. فنادى ابنهَ إدريسَ، وطلبَ منه إحضارَ السَّيَّارة للذهابِ إلى مطار المزرعةِ والهروبِ بالطائرة إلى إقليمٍ قريبٍ من الحدود والتسلُّل إلى خارجِ البلاد والاختفاءِ هناك حتى تهدأ الضَّجَّة!

وصعِدَ إلى غرفته لأَخْذِ حقيبة العملَةِ الصعبةِ التي يحتفظ بها هناك لِمثل هذه الطوارئِ. وبينما هو يُخْرِج الحقيبةَ، سَمِعَ صوتَ ابنه يناديه باستعجالٍ لِيَنزلَ، وصاح به مُطَمْئِنًا:

– في التلفزيون خبر يهمُّك!

فأشعَل الرجلُ جهازَ غرفةِ نومه فإذا رئيسُ وكالةِ اللجنةِ الدوليَّة يردُّ على أسئلةِ وسائل الإعلامِ المحليَّةِ والدوليَّةِ بقوله: «جئنا ونحنُ متأكدون مِن وجود مَزارعَ كثيرةٍ للكِيفِ بالوادي المجاورِ. وأخذنا صُوَرَها بالأقمار الاصطناعيةِ، فظهرتْ خضراءَ يانعةً، تبشِّر أو تنذِرُ بمحصولٍ استثنائيٍ هذَا الموسمَ! ولكن حين وَصَلْنا إليها اليومَ وجدناها قاعًا صَفصفًا عارية من كلِّ نباتٍ!»

وسأله صحافي إسبانيٌّ:

– بماذا تفسِّرون ذلك؟

فقال الرجل الأشيَب:

– لستُ أدري. ولكن ما حَدَثَ لا يمكن أن يكون إلا معجزةً! فمزارعُ الكِيفِ لا تموت بين عشيَّةٍ وضُحاها.

– ماذا ستفعلون الآن؟

– سنرفع تقريرَنا عن هذه المنطقةِ إلى الوكالة، ونقترحُ عليها شَطْب هذا الوادي من بين مناطق الكيفِ، وشطبَ أسماءِ أهلِها من لوائِح المتَّهمين. ولكن رقابتنا الفضائيَّة والأرضيَّة ستستمرُّ كما كانت...

ونزل تصريحُ الرَّجل برداً وسلامًا على حَمّادي الرَّخا. ولما كان لا يصدِّق أن هذه المعجزةَ حدثتْ. فقد خمَّن أن يكون رجالُ الدَّرك الذين يتقاضَوْن منه ومن زُرَّاع الكَيفِ أتاواتٍ عاليةً، هم الذين ضلَّلوا اللجنةَ، وحوَّلوا مسارَها إلى مناطقَ أخرى قاحلةٍ، تَستُّرًا على أصدقائهم واستدراراً لسخائِهم في المستقبل!

وبعد الغَداءِ، طلب حمادي من ابنِه إدريسَ أن يأخذَه بالطائرة إلى مزارعِه بالوادي ليتأكَّدَ بنفسه من صِحَّة الأخبار.

وفي الوادي العميقِ، نزلتْ به الطائرةُ الخفيفةُ، واقتربتْ من الأرض، فرأى بعينيه القَحْطَ الذي أصاب المزارعَ كلَّها. وحَوَّم إدريسُ بالطائرة بين السُّفوح، وأخرجَ آلة تصويرِ فيديو وأخذ

يصوِّر المزارعَ التي كانت خضراءَ ليَعرضَها على والده بعد عودتهما، ليتأكد من صحة ما رأى. وحين لمْ يبقَ للأب شكٌّ في تقرير اللجنةِ أمرَ ابنه بالعودة. ولزمَ الصَّمتَ والتُّفكير طولَ الطريق.

وفي بيته أقفل عليه في غرفةَ نومه، واستلقى على فِراشه، وغرق في حالة تأملٍ ومحاسبةٍ للنفس ونقدٍ للذات. ولمْ يُفِقْ من شُروده حتى طرقَ ميمونٌ البابَ عليه، وأخبره بقدومِ شريكهِ الحاج البارودي لزيارته.

ونزلَ حمادي الرَّخا إليه، فحدَّثه الزَّائر بما يروَّج في الشارع من أخبارِ المعجزةِ، وكيف أن الناس نَسَبوها إلى الفقيهِ أمقرانَ، وإلى خُطبته التي أبكتْ المصلِّين...

* * *

وأصبح الفقيهُ في نَظَرِ العامَّة وليًّا صالحًا، وقَصَدَه زُرّاع الكيفِ، ومن بينهم والدُ ميمون حمادي الرَّخا، فأعلنوا توبتَهم على يديه من زراعة الكيفِ، وطلبوا منه الدُّعاءَ لهم والاستغفارَ، ففعل منشَرِحًا راضيًا، وأصبح وادي الكيفِ

يُعْرَفُ بوادي «الفقيه سيد أمقران».

وطلبَ ميمونٌ من والده الذهابَ معه إلى الدُّكان الذي لم يكنْ زاره منذ سلَّمه إدارتَه، ففُوجئ الرجلُ بالتحوُّل الكبيرِ الذي طرأ عليه، وبكثرَةِ السِّلع وتنوُّعِها وأناقةِ عرضِها، وبازدحامِه بالزبائن من الفلاحين والطلبة وعامَّة الناس.

ووجدَ الجناحَ الجديدَ الذي فتحه مدرسةً يَعجُّ بالحركةِ، مثلَ خَلِيَّةِ نَحْلٍ، فانشرحَ صدْرَه، وأخذَ يحمد اللهَ في سِرِّه.

وفي مكتب الدُّكان، أَطْلَعَه على دفاترِ حساباتِه، فاندهش الأبُ للأرباح التي حقَّقها الفتى في زَمَنٍ قصير، والتي يمُكن أن تُغنيَ أسرتَه عن زراعة الكيفِ، وتُبْعِدَ عنها وَصْمَةَ العارِ وشبحَ الخوفِ وعِشرةَ الأشرار...

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوال… بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر… فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية … الحديثة للشباب في العالم العربي.



